

توظيف التراث في الشعر العراقي المعاصر (مراثي الجنوب) لمسلم الطعان أنموذجا
م.د. ماجد عطية حميدي
مديرية تربية ذي قار / قسم تربية الشرطة
majed.algezi1970@gmail.com

الملخص:

للتراث العربي حضوره الذي لا ينكره أحد من المهتمين بالشأن الأدبي، ولأهميته بمكان فقد وظّفه الشعراء بخاصة في نتاجهم الشعري مستجمعين فيه ما أمكنهم من ذلك التراث الأدبي الزاخر بعطائه، فالتراث إبداع البشرية في حقبة زمنية متواصلة، وهذا الإبداع لا يمكن تجاهله أو التغاضي عنه لأنه مصدر مهم من مصادر الحضارة، ومنه استمد الأدباء مادتهم وجعلوها خيطا يصلهم بالحاضر المرتكز على قاعدة رصينة. والتراث الذي نهتم به سيولد تفاعلا بين مفاهيمه ومفاهيم المعاصرة والحداثة، لأنه لا يتعارض مع تلك المفاهيم، ولكنه يتحد معها مكونا لنا وحدة عضوية متماسكة، إذ اثبت وجوده وبدأ يأخذ مكانته الموضوعية في المواقع الفكرية المتعددة.

الكلمات الأساسية: التراث، توظيف، المراثي، التراث الاجتماعي.

Employing heritage in contemporary Iraqi poetry (Elegies of the South) by Muslim Al-Ta'an is a model

Dr. Majid Atiyah Hameedi

Dhi Qar Education Directorate/Shatra Education Department

majed.algezi1970@gmail.com

ABSTRACT

The Arab heritage has a presence that no one interested in literary matters can deny, and because of its great importance, poets in particular have employed it in their poetic productions, gathering in it what they can from that literary heritage that is rich in its gifts. Heritage is the creativity of humanity in continuous periods of time, and this creativity cannot be ignored or overlooked because it is a source. It is an important source of civilization, and from it writers derived their material and made it a thread connecting them to the present based on a solid foundation. The heritage that we care about will generate an interaction between its concepts and the concepts of contemporaneity and modernity, because it does not contradict those concepts, but rather unites with them, forming a cohesive organic unit for us, as it has proven its existence and begun to take its objective place in multiple intellectual sites.

Keywords: heritage, employment, elegies, social heritage.

المقدمة:

يدور هذا البحث حول مسألة التراث العربي وتوظيفه في الشعر العراقي المعاصر وكان الاختيار قد وقع على مجموعة شعرية عنوانها (جنوب المراثي) للشاعر العراقي مسلم الطعان، وفيها ستكون دراسة أدبية للتراث القديم الذي استنطقه الشاعر وحاول توظيفه بشكل أدبي، مستذكرا من خلاله مآثره في الواقع وماسمعه من أبيه وجدته وأسرته وأصدقائه، فكان نتاجا شعريا جنوبيا خالصا بنكهة أهل الجنوب

الذين جُبلوا على المعاناة ولاسيما في مدينة الشاعر مسلم الطعان وهي مدينة الناصرية في محافظة ذي قار.

توزعت مفردات التراث في (جنوب المراثي) على اتجاهين:

الأول: الاتجاه الديني: المتمثل بالاعتقاس من بعض النصوص القرآنية وتوظيف أفكارها وخاصة القصص القرآني وكذلك الأفكار المذهبية بشكل بسيط.

الثاني: الاتجاه الاجتماعي والتاريخي: من خلال توظيف الشاعر للقيم الأصيلة التي عاشها العرب قديما ولاسيما في جنوب العراق، مثل الشجاعة والكرم وحسن الجوار والإيثار وغيرها.

وقد أصبحت للتراث أهمية في العصر الحديث كونه يمثل ينبوعا دائم التفجير بأصل القيم وأنصعها وأبقاها ، والأرض الصلبة التي يقف عليها لبني فوقها حاضره الشعري على أرسخ القواعد وأوطدها ، والحصن المنيع الذي يلجأ إليه كلما عصفت به العواصف فيمنحه الأمن والسكينة⁽¹⁾.

إن الصلة بين الماضي والحاضر صلة وثيقة لا يمكن تجاهلها كونها تمثل علاقة جدلية بين زمنين مختلفين ، وكلاهما جسد دواعي العصر من خلال المادة المضمونية والجمالية الكامنة فيهما، فيدخل فيما يسمى بصراع الأصالة والحداثة لأن (الأصالة هي الرؤية المعاصرة للتراث)⁽²⁾ ، وهذه الرؤيا تشارك في استمرار العلاقات الاجتماعية والتغيرات التي تطرأ عليها بحسب العوامل البيئية.

عندما يقدم الشاعر شخصية ما تراثية، فانه يريد أن يحملها شيئا من تجربته فتكون جسرا يمر من خلاله ليفصح عما تكتنزه ذاكرته من أحداث ويعبر بها عن رؤاه الجديدة، وتقف وراء هذه الحالة من الاستدعاء للشخصيات التراثية منها الاجتماعية والثقافية وغيرها" يصعب الفصل بينها ووضع حدود دقيقة لمنطقة تأثير كل منها، والجزم بالنقطة التي ينتهي عندها تأثير هذا العامل المعين لبدء تأثير ذلك الآخر"⁽³⁾.

يمكن أن نتلمس ملامح التراث وآثاره في كثير من أعمال الأدب الحديث سواء على صعيد القصيدة أم الرواية والقصة أم المسرحية . وقد تباينت طريقة الاستخدام وتنوعت أساليب الاستلham ، فالتراث قد يُستدعى بطريقة سطحية يفرضها ظرف النص أو المناسبة فيكون الاستدعاء شكليا⁽⁴⁾ ، وقد يكون الاستدعاء لإعادة التوضيح والتفسير، أي استخدام المادة التراثية لإعادة دراستها بشكل معاصر. وأحيانا يكون الاستدعاء تقليديا بدلالة التمسك بالماضي والالتزام به ، وأحيانا أخرى يستلهم التراث ليكون" ديكورا لأحداث معاصرة قاصدا بذلك الى المقابلة بين القديم والجديد ، أي أن المادة التراثية حينئذ تصبح رمزا بالفروق والتوازي"⁽⁵⁾.

ولم يتوقف الاستخدام التراثي عند الرمز، بل انه امتد ليشمل القناع والأسطورة ويكون عنصرا دالا في بنية الصورة ، هذا مما أضاف لتلك الأشكال الأدبية خصوصية تراثية ومعاصرة في آن واحد ، وجعل من التراث مادة فاعلة في الأدب يؤدي دلالات معاصرة ، لاحتوائه التوظيف الحي الذي نقل التراث من مادة مضى عليها الزمن إلى مادة جديدة فيها موقف وحركة ونسيج متنام مع النص مكونا لنا ما يسمى بالتراث الحي⁽⁶⁾.

ويأتي الرمز التراثي لتوظيف المادة التراثية توظيفا معاصرا، أي حدوث انعطاف في مضمون الموروث بين الدلالة الماضية والدلالة الحاضرة له مكونا لنا ما يسمى بالعلاقة الرمزية.

إن استحضار الرموز التراثية من أحداث وشخوص يتطلب من الشاعر التعامل مع التراث بوصفه موقفاً وليس مادة فقط ، لأن الفنان المبدع لا يستخدم التراث لأجل الاستدكار والحنين ، وإنما ليسقط معاناته على معطيات التراث، محاولا إيصال الامتداد الحضاري بين الماضي والحاضر عن طريق أدواته الفنية ، وهذا الإيصال الفني سيبعد التراث عن سكونيته الماضية ، لأنه سيضيف إليه أبعادا جديدة ومعاصرة بقدر ما يأخذ منه ، بذلك تحقق الدلالة والرؤية المعاصرة لمعاناة الفنان بأدوات تراثية حققت المعنى المفارق بين الاثنين⁽⁷⁾.

وبقدر هذا الاستحضار لتلك الرموز تكمن مقدرة الشاعر وتظهر من خلالها الصور الفنية المكتنزة والمهارات اللغوية التي تمنح النص المستدعي مسحة تراثية تاريخية.

التراث في (جنوب المراثي):

في هذه المجموعة الشعرية التي صدرت في عمان سنة 4002 والتي تقع في (511) صفحة مع الفهارس كانت مشحونة بالموروث التراثي وتوظيفه بشكل كبير يبدأ ذلك من عنوان المجموعة (جنوب المراثي)، ذلك العنوان الذي يحيلنا إلى جنوب متعطش يعيش شظف العيش ويلوئ البكاء متعكزا على ترنيمات عجائز الجنوب مصورا واقعا أليما محملا بالذكريات ولاسيما في مدة زمنية عاشها جنوب العراق في تسعينيات القرن الماضي أيام فترة حكم البعث الذي عاث في البلد جورا وظلما وبخاصة في مدن الجنوب.

مسلم الطعان الشاعر ابن مدينة الناصرية التي كانت ومازالت مدينة الجوع والاضطهاد والفقر والموت، تلك المدينة التي أنجبت الشعراء الذين عبروا عن مأساتها ومأساتهم فيها جيلا بعد جيل، فلا بد من أن تجد هذه المعاناة نصيبها في شعر شاعرنا الطعان، فجعلها في علاقات متوائمة متواشجة في وعي عميق الدلالة بالأشياء المنتجة.

إن الشاعر تواصل مع تراثه على نحو يعكس وعيه بأبعاد هذا التراث حيث لم يكتف بالتأثر والتقليد، بل استعمل أساليب المحاوراة والتحوير سواء أكان مع النصوص أم مع الشخصيات، فكانت نصوصه تفيض بالحيوية، فحقق لتراثه ذلك الحضور الحيوي المتميز في تجاربه الشعرية. ومن هذه النصوص التي استدعاها من وحي موروته الجنوبي:

ياخذك النوم فريسة أوجاع تترى

تؤوب اليك طيور الليل

تنقر حبّ ضياء من بيدر عينيك (8)

في هذه القصيدة (قد تمضي) يسترجع وجع الألم المضني عبر خيط من الذكريات، فتمر على مخيلته صورة الحقل الذي تأتيه الطيور ليلا في غفلة من الحرّاس ويقصد بهم الفلاحين الذين أتعبهم العمل في النهار، فكلمة بيدر تعني مجموعة من الحبّ الذي يُجمع على شكل تلّ، وفي قصيدة (نبوءات جدي):

لكن يا جدي

حفيدك هذا لم يملك بضغ وريقات

ليحقق ماكنت تمنى النفس به

يشوي سمكاً ويتلو الفاتحة

ويحقق للجدّ الطيب نذرا (9)

في حوار مع الجد وهو يستذكر أمنيات جده بحقه، كيف يريده أن يصبح أستاذا معروفا تحترمه الناس لمكانته وتقف له الطلاب إجلالا، لأن شخصية المعلم في ذهن الأجداد ارتبطت بهالة من الرفعة والسمو وهي مرتبة لا يصل إليها إلا من يستحقها، ولكن الشاعر من خلال هذه القصيدة يشعر بالأسى لما أصابه من الضعة والهوان في مجتمع فقير منهار، ولم يحصل المعلم على تلك الأمنيات التي كان يتمناها له الجد، فكان يتمنى أن يشوي السمك وبقراً الفاتحة للأموات وخاصة أهل صاحب الطعام، وهي من الموروث الاجتماعي الذي بقي الناس محافظين عليه الى وقتنا هذا.

لكن الجدّ مات ومات السمك معه فقراً الشاعر الفاتحة لهما، هذا ما استحضرت ذكرته في قصيدة (جنوب المراثي)

والجدُّ يريدُك أن تشوي سمكا وتتلو الفاتحة

مات السمكُ

وقرأتُ الفاتحة للجدِّ

وللسمك ..! (10) ، في إشارة منه إلى فقدان خيرات بلاده.

وفي قصيدة (اللهم اشهد)⁽¹¹⁾ يكرر عنوان القصيدة أربع مرات وهو يؤكد تمسكه بالموروث الديني إذ يأخذ على نفسه ويشهد الله عليها أنه ما خان وطنه وقد باع وسادة طفله كي يستتر جوع أهله ببعض الطحين في زمن البؤس ويقصد سنوات التسعينيات التي عاش فيها العراقيون شظف العيش وفي الجنوب بشكل كبير.

ومع هذا الإرث التاريخي المصبوغ بطابع ديني يمضي الشاعر في قصيدة أخرى أعمق دلالة في إضفاء المسحة الدينية وهو يستعير اسم النبي (0 يونس) في قصيدة (أوراق في قارعة الخبز المسروق)، هذا العنوان الذي يحملك إلى ذكريات لا تنسى في مجتمع عاشه الشاعر بفضاضة:

تسقط أوراقُ العفّة يا يونس والسيف

ينامُ ذليلاً

ويكونُ قتيلاً

والجوعُ بديلاً

في زمنٍ جدُّ مخيفٌ ... تسقط أوراقُ العفّة يا يونس من أجل رغيف ؟

إنَّ الشاعر يمضي بعيداً وهو يستعين بقصة نبي الله (يونس) عليه السلام وكيف أنبتَ الله عليه شجرةً اليقطين، هنا تسقط هذه الأوراق، وتتكشف عورات الناس الفقراء من أجل رغيف

يايونس حيتانك أرحم من حيتان الخبز المسروق

فرمانك بحرٌ من قيظٍ والبردُ تراويل صلاة

وزماني صحراءٌ من غيظٍ ومجامرُ حيتانٍ غرثى...

لا شجر اليقطين يظللنا

نحن عراة

نحن الأحياءُ الأموات (12)

وهنا وظف الشاعر حدثاً تاريخياً معروفاً لأنها صورة تتماهى مع ما يشعر من خلال التراسل الشعوري " وكثيراً ما يقترن توظيف الحدث بتوظيف الشخصية لأنَّ الحدث لابد أن يقوم به شخص ما أو مجموعة من الأشخاص " (13)، وتعود إلينا قصة ذي النون مرة أخرى في (جنوب المراثي) (14)

وحوتُ الجوع

ستنحسر الأمواه عنه

ويبقى وحيداً

إذ لا موجٌ يكلُّ هامته

وذو النون الأزكى

أسقطه الرّبُّ في جوف الحوت

ليعلمنا درساً

إنَّ الورقةَ

لا تسقطُ إلّا حين يشاء

وفي استحضار واستدعاء آخر لموروث ديني فنرى الشاعر يستعير صورة قميص يوسف (عليه السلام) وقصة زليخة في محاولة إغواء نبي الله، في ظاهرة تمثل في مقطع من قصيدة هذيان الساعة:

هذيان الساعة

مسمارٌ في حائطِ تاريخٍ

قدّته الريحُ قميصاً

يحلُم في حبلٍ غسيلٍ

لشهوَاتٍ تحسُنُ فَنّ الإغواء...! (15)

وهنا نشير إلى " إنَّ الموروث العربي الأسطوري الفلكلوري والديني هو موضع استيحاء واستلهام معظم الشعراء العرب المعاصرين كالسير الشعبية والحكايات والخرافات وقصص الأنبياء (المعراج وقصة أيوب - ويوسف - وموسى والفرعون...) لكن يبقى أن نعرف كيف وظّفوا هذا الموروث وكيف فسروه وأفادوا من الطاقة الحيوية المخزونة فيه" (16)

ويوظف الشاعر إرثاً جنوبياً آخر كان الأولاد يطوفون الشوارع ليلاً يرتدون الملابس السوداء وهم ينشدون:

(عليون علي ... المايحك يا علي ..) (17)

وفي نص آخر يغوص الشاعر في القدم فيصل الى مدينة أوروک في جنوب العراق القديم/ الحديث، مدينة السماوة وهو يطلب عشبة الخلود التي كان يبحث عنها كلكامش

أعني ياجنون أوروک

أعني على استرجاع عشبتي (18)

ويستحضر هذه الصورة مرة أخرى في قصيدة (جنوب المراثي) وهي أطول قصائد هذه المجموعة:

عزّاؤک في عشبة کلکامش في نور قباب (19)

أمّا واقعة الطف فقد كررها الشاعر أكثر من مرة في مجموعته، منها في قصيدة (غني ياسنبلة الروح) (20) وهي قصيدة أهداها الشاعر إلى روح أحد المخبولين في الناصرية اسمه كاظم وكان يعرف بـ (كاظم الحلو الحباب) كان يجوب الشوارع ويحبه أهل الناصرية لأنه كان مسالماً يبتسم كثيراً، القي عليه القبض ووضع في السجن ومات من شدة الحر والخوف، فبعدما كان حراً طليقاً أصبح في زنزانة الموت: (21)

کنا نستقبله في قرية فرحان *

وبخور المعبد في أوروک

کنا نستشقه عند زيارة سيد جابر**

بطقوس اليوم العاشر

من واقعة الطف الحبلى بالألوان...

والولد الحلو الحباب

يتصدر قائمة القتلى
 وآخر ما يطلقه ضحكته الحبلى
 الولد الحلو الحباب
 يفارق أرضا كانت تمنحه
 دفنا من شاي مقاهيها.
 يقول في قصيدة (مراثي الجنوب) وهو يستحضر معنى الطف ومضمونه (22)
 ودموع الوالدة
 ديوانك لما الأنهار تجف
 ونزيف الطف
 سراجك لما تمضي في كهف الظلمات
 وبعدها:
 وسنبلة الروح
 أعطتنا جيشا من وجع أسطوري
 استوطننا منذ قرون
 كان يهيج بنا
 في اليوم العاشر
 من واقعة الطف الحبلى بالأحزان...!
 خاتمة:

مرّ بنا كيف وظّف الشاعر مسلم الطعان الموروث التاريخي والاجتماعي والديني واستدعاه كنصّ أدبي بحبكة درامية فنية، وهو يحاول أن يمازج ما بين الإرث المتأصل في القدم وما بين المستدعى له في شكل صور حيّة عاصرها الشاعر طفلا وكبيرا، فكانت هذه الدراسة المتواضعة في مجموعته الشعرية (جنوب المراثي)، تجلّى فيها توظيفه للموروث العقائدي والاجتماعي في جنوب العراق وبالتحديد في مدينة الناصرية مسقط رأس الشاعر وأيام صباه وشبابه قبل أن يهاجر إلى بلاد الغرب في أيام النظام البعثي الفاشي / النازي المسك بزمام السلطة بالنار والحديد وقد استدعى ما أمكنته الذاكرة من الموروث فصاغه على شكل يجعل القارئ يعيش معه تلك الذكريات بالرغم من تشبعها بالأسى والمرارة وخاصة لمن عاصرها وعاشها مع الشاعر.

الهوامش

- (1) استدعاء الشخصيات التراثية ، علي عشري زايد : 7 .
- (2) توظيف التراث وإشكالية التأصيل، مصطفى الرمضاني : 79 .
- (3) استدعاء الشخصيات التراثية ، علي عشري زايد : 15 .
- (4) ينظر : التراث مادة معاصرة في الشعر العربي ، حسن الدجيلي ، مجلة المورد ، المجلد 30، ع 3 / 78 .

(5) التراث والثورة ، غالي شكري : 167 .

(6) ينظر : التراث مادة معاصرة :78 .

(7) ينظر : توظيف التراث وإشكالية تأصيله : 87 .

(8) جنوب المراثي: مسلم الطعان: 8

(9) جنوب المراثي: 71

(10) جنوب المراثي: 90

(11) المصدر نفسه: 18

(12) جنوب المراثي: 27

(13) توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر: 209

(14) جنوب المراثي: 96

(15) جنوب المراثي: 23

(16) التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع في الشعر العربي الحديث: طراد الكبيسي: 41

(17) جنوب المراثي: 67

(18) نفسه: 82

(19) نفسه: 87

(20) نفسه: 76

(21) جنوب المراثي: 77

*قرية في الناصرية أصبحت بعد ذلك تسمى سومر الأولى والثانية والصالحية حالياً.

(22) جنوب المراثي: 90

**مقام لأحد السادة في الناصرية يقع في الصالحية الآن كان العوام يقصدونه ويضعون النور في مرقده للتبرك وقضاء الحوائج.

المصادر

- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د. علي عشري زايد، ط1، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، 1978م.
- التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع في الشعر العربي الحديث، طراد الكبيسي منشورات وزارة الثقافة والفنون – بغداد 1978م، الموسوعة الصغيرة (12) .
- التراث مادة معاصرة في الشعر العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين حسن الدجيلي ، مجلة المورد ، المجلد 3 ، ع 3 – 2002م – 1423هـ .
- التراث والثورة ، غالي شكري، ط1، 1973م، دار الطليعة، بيروت .
- توظيف التراث في شعرنا العربي المعاصر، الدكتور علي عشري زايد، مجلة فصول، العدد (11) .
- توظيف التراث وإشكالية التأصيل في المسرح العربي، مصطفى رمضان، مجلة عالم الفكر، المجلد 17، ع4، (يناير ، فبراير ، مارس) ، 1987 .
- جنوب المراثي: مجموعة شعرية، مسلم الطعان، دار الكرمل، الأردن، ط1، 2004م.